

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وأخذ بستور ورجاله الخالصاء بصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الانسان والحيوان . فانتت بأمراض مختلفة الأجناس بلفت العشرات عدداً ، وقضوا في هذا ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٠ . كان بحمهم في هذه الفترة به شيء من التخليط ، وبحسهم فيها على غير هدى . ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائحة للتحصين من الأوداء ، ذلك التحصين الذي حلم به طويلاً . ليس في استطاعتى أن أؤدى قصة ماجرى في ذلك بالضبط ، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها ، ولأن بستور نفسه لم يشر في كتاباته العلمية إلى الذي حدث ، ولم يقل قط إن الذي جرى له في ذلك كان حظاً وانفاقاً . ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع ، وأسد خلاها على قدر الامكان

ففي عام ١٨٨٠ كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصغيرة البالغة الصغر التي تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بـكوليرا الدجاج ، وكان الدكتور بير ونسبتو Peroncito اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغة في الضآلة فلا ترى المكركوب منها غير نقطة صغيرة ترتعد تحت أقوى المدسات ، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقيية ، وذلك في حساء صنعه لها من لحم الدجاج ، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة ، وهي تتكاثر في هذا الحساء فتبلغ الملايين الكثيرة في الساعات القليلة ، قام فأخذ من الحساء قطيرة فأسقطها على قُتَيْتة خبز ألقمها دجاجة ، فلم تمض ساعات حتى انقطعت ونسوة هذا الطائر المنكود ورفض الطعام واتننش ريشه واستدار فكان ككرة من العيون . فلما أصبح الصبح جاءه بستور فألقاه يترنح على رجلين ضعيفتين ، وعيناه في اقتمض من نوم غامض انقلب سريعاً إلى نوم أبدي عميق

فانتت في شهر عملها ؛ وعلى عمال الغواص الذي هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج ...

مر بي أيها الدليل في الدهاليز ... وأثر بأسبمك إلى الققطع الباردة التي احترقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود لخص أيها الدليل أجل معاني الدنيا في عباراتك الباهتة وقل هنا « قبور الأغنياء » ، وهنا قبور القرن الماضي ، وهنا قبور المتوسطين من الناس ... كأنى جئت هنا لأضع الموتى في مراتبهم الاجتماعية ، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثروتهم وما حصلوا من مجد ، وما لا قوا من عنت قف أيها الدليل أمام أجل فتنة فنية ؛ ثم لا تدعى أناملها لأنك تحسب أنك قلت لى عنها كل شيء إذ تقول إنها تكلفت أموالا كثيرة .. . ولتدخل بي أيها الدليل إلى دهاليز طويل ، لأرى في جداريه ادراجاً فأحسب أنها ادراج مكتبة وقفها بعض ذوى الثراء على الراغبين في العلم الباحثين عن المعرفة حتى في القبرة ، ثم قل لى إن في كل درج جثماناً ... وأن الادراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين ...

إنها المكتبة حافلة ولكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختابها ؟ واخرج بي أيها الدليل إلى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتهم نصيباً ولا تمائيل . ولا تقل لى عدد الموتى ولا أعمارهم ... فاني هنا في حديقة جميلة غناء ، بوى أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرنى ، والجبل الأثم يطالعنى ، والموتى الساكنون يملون بسداجة قبورهم نفسى ...

ولكن قل لى أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو طاملاً من كل حلية . ؟ « نعم ياسيدى لأنه قبر رجل غريب ا »

أيها الانسانية المسكينه تشبهى بالفروق ، وتأنق في الموت ، وتأنق في الحياة ، وأقيس موتى الأغنياء قبابا ، واحفرى لموتى الفقراء لحودا ، ثم انظرى آخر الأمر ماذا بقى لديك في يديك ؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) في متحف ، يرتق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر إلى صورهم زائر عابر ، ولا تبقى وراهم إلا عبرة في عين ، وحسرة في قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر ا

نسى رضوانه المحامى

(جنوى)

أو اثنين من الذي حقناه فأبى أن يموت ... »
وأحضرت الدجاجات وهي تملأ الجو صياحا ، فضرب أحد
الأعوان محقنه في عضلات صدورهما بملايين المكروب في صدور
تلك التي كانت حقنت من قبل ، وكذلك في صدور الجديبات ،
ومضى النهار ؛ وأصبح صباح الغد ، فأقبل رو وشمبرلاند إلى
المعمل ، وبينما هما يدخلان سمعا صوت بستور خائفا يأتي من تحت
السلم من بيت الدجاج وهو يصيح بهما : « رو ! شمبرلاند !
انزلا إلى وأسرا ! » وكان بستور يسبقهما دائما إلى المعمل
بساعة أو نحوها

ونزلا إليه فوجداه أمام الأقفاص يذرع الأرض بخطواته .
فقال لهما : انظرا ! ان الدجاج الجديد الذي حقناه أمس مات .
وكان يجب أن يموت . ثم انظرا الى هذا الدجاج القديم الذي
كنا حقناه من شهر مضى ، فرض ثم طاب ، هذا الدجاج أخذ
بالأمس نفس الحفنة القاتلة التي أخذها ذلك الدجاج الجديد ،
ولكنه لم يموت ... لقد قاوم فعل الحفنة أتم مقاومة ، انه فرح
مرح ... انه يأكل ! »

فاختبل رو وشمبرلاند ، وانبههم عليهما الأمر حينئذ . فقال
بستور : « ألا تدرى كان مغزى هذا ؟ مقزاه أنى وجدت كل
ما أردت ! لقد وجدت الآن كيف أعطى الداء قليلا الى الحيوان
— قليلا بحيث يُجرحه ولا يميته فيسفى وشيكا .. وكل الذي
علينا أن نعمله هو أن ندع هذه المكروبات الحادة القاسية تشيخ
في زجاجاتها . بدل أن نستخرج منها بالزرع أنسال كل يوم ...
ان المكروبات تقسّم فتشيخ قهدا حدثها ، وتضعف ثورتها ،
فاذا أنت حقنتها في الحيوان أعطته مرض الكوليرا ، ولكن
بمضاً قليلا منه لا كلفه ، فاذا طاب استطاع بعد ذلك أن يصد
لأخيث مكروب في العالم ... فأننا نرى أن فرصتنا في هذا
عظيمة ؛ وأن هذا أخطرا اكتشافا ، هذا اللقاح الذي كشفت ،
وهو أكثرنا كدا من لقاح Vaccine الجُدريّ وأكثر منه
حظا من العلم ، فالجدريّ لم يرأحده جرنومة ... فهيا بنا
نطبق هذا على داء البجرة ... وعلى كل الأدوية الخبيثة ...
ونخلص حياة الانسان والحيوان ! »

لقد كان الذي وجدته بستور مصادفة وانفاقا ، فلم يكن من تدير

وقام رو وشمبرلاند Chamberland على هذه المكروبات
الصغيرة يربيتها وبرعيانها تربية الحاضن ورعايتها . فكانا يتمسان
عودا من اليلتين في حساء يمجّ بها ، ثم يغمسانه بما حمل من
البلل ويجرحّ كانه في حساء جديد خال من الأحياء ، فلا يلبث أن
يمجّ هذا بالخلائب الجديدة من ذلك المكروب . وقاما على هذا
يوما من بعد يوم ، ويكثران من القليل الذي على العمود البليل
المدد الهائل الكبير من هذه المكروبات ، حتى ازدحمت متناضد
المعمل بزريعات متروكة قديمة بلغت أعمار بعضها أسابيع كثيرة ،
وتفكر بستور فيها فقال : « غدا نُنحى كل هذا الركام
وننظف الماضد »

وهنا جاء الحظ يهمس في أذن بستور ، فما كان من صاحبنا
أن غير رأيه ، فقال رو : « نحن نعرف أن مكروب كوليرا الدجاج
لا يزال حيا في هذه القبابة ... نعم إنه قديم ، فقد تركناه في مكانه
بضعة أسابيع ... ولكن رغم هذا أرى أن تحقن قطرات
قليلة منه في بعض الدجاج ... »

وأنفذ رو ماسأله بستور ، وإذا بالدجاجات يجيئها المرض
فيذهب عنها الريح والخفة والنشاط ، وتهوّم كأنها تطلب النعاس .
وأصبح الصباح فأنى بستور يطلبها في المعمل لتشريحها وخصها
موقنا أنها لا شك ماتت كالعادة ، فاذا بها تجرى على عينه هنيئة
سميدة . قال بستور : « هذا عجيب ! إن المكروب من زريعاتنا
كان قبل الآن يُحقن في العشرين دجاجة فتتوت العشرون
كلها ، أما هذه ... » على أنه لم يكن يُقدّر لبستور في هذا
اليوم أن يكشف كشفه الخطير المنظور ؛ فنى الغد قام هو وأسرته
ورو وشمبرلاند لقضاء عطلة الصيف ، وقبل سفره أودع
الدجاجات التي برئت ذمة حارس المعمل ونسى أمرها

وعاد بستور من سفره . وذات يوم طلب إلى خادم المعمل أن
يحمل اليه بعض الدجاج الصحيح الجديد ، وأن يجزه لاحقن ،
قال الخادم : « ولكن يا سيد بستور لم يبق من دجاجنا الجديد
الذي لم يحقن غير زوج أو زوجين ، أما البقية فأنت تذكر أنك
حقنتها قبل سفرك بمكروب من زريعات قديمة فرشت ولكنها
لم تمت . فتسخط بستور على الخدم الذين يهلون فلا يحتفظون
بوفرة من الدجاج لتكون دائما كافية حاضرة ، ثم قال : « إذن
فأحضر ما عندك من دجاج جديد ، وزودنا كذلك بزواج

ونجر الأطباء ذوو الآراء القديمة والأزرّة الزرقاء يستور أن
نعتب نفسه إماما لينار العظيم . وقام الدكتور جول جيران
Jules Quérin يسخر من بستور أن آثار هذه الثائرة كلها من
أجل تخبيص في دجاج - واستمرت الحرب في استمارها .
وقام بستور في غضبة نائرة ، وأعلن على رؤوس الأشهاد رأيه
في سخافة إحدى العمليات الجراحية التي يقوم بها جيران
ويعجب ويُغرم بها . فتلا ذلك منظر من أقيع المناظر وأفضحها
يسوؤني أن أصفه وتضيق نفسي لاضطراري لذكركه . نهض
جيران من مقعده ، وكان شيخاً في الثمانين من عمره ، وأراد
أن ينقض على بستور ذي الستين ، وما كاد يفعل حتى صوب إليه
لكمة ، ولكن تدخل بينهما الأصحاب فتمنوا اشتباك هذين
الشيخين اللذين حسبنا أن الحقيقة تظهر باللكم والرفس وبكسر
العظام وخمش الوجوه

وفي النداء أرسل جيران العتيق شاهديه إلى بستور يتحداه
إلى المبارزة . ولكن يظهر أن بستور لم يشأ أن يخاطر بحياته
وأن يموت على هذا النحو ، فأعطى صديق جيران رسالة يحذرها
إلى كاتب الأكاديمية ، وقال فيها : « لم يبق لي الواجب من
سبيل أسلكها إلا أن أعرب عن استمداي إلى تغيير كل مانلته
فيا يرى المحررون أنني خرجت به عن حدود النقد المباح والدفاع
المعقول عن النفس » . وبذلك هرب بستور من الغزال فأثبت
مرة أخرى أنه إنسان ولو فانه أن يكون ما نسميه في المادة رجلا
أمر زكي (ينبع)

أيتها البرصية يا لبون السكريني
لا تبين لكم أن نيا سوا منكم أو نهملية
فيل أن نجرير الدور الجدي
أنتي كومان!
فريد الدواء محض نيا على أحدث الأبحاث
العلمية الخاصة بهذا المرض
اطلبوا البيانات اللازمة مجاناً من
جلاهورمين . صندوق برسته ٢١٠ م

العقل الانساني . ومع هذا فلو أن رجلا دون بستور قدرا وقع
على الذي وقع عليه لفضي السنين الطويلة بمحاول تفسير هذه الظاهرة
الخفية لنفسه دون أن يأتي أمرا مذكورا ، أما بستور فما كاد يقع
اتفاقا على حماية دجاجتين حقيرتين من جرثومة فتالة حتى رأى
في هذا فرصة سانحة عظمى لحماية بني الانسان من الموت ، فابتدع
عقله الوهاب طريقة جديدة يتخلل بها الطيعة التي شادت أن
يستلم بنو الناس كلما هبت عليهم تلك بالمداء أحيائها الصغيرة
كان بستور بلغ الثامنة والحسين من عمره ، فلم يبق فيه من
الشباب بقية . ولكن هذا اللقاح الجديد الذي اكتشفه بنير
قصد فنجاه به الدجاج من الكوليرا ، هذا اللقاح فقع في جرة
حياته فاستمرت ، فماش من بعد ذلك ست سنوات هي أملاً
سنواته بالحركة وأشدّها احتداماً بالحياة ، سنوات امتلأت بمحجاج
شنيع ، واتخذال فطيع ، ونصر غير منظور . في هذه السنوات
الست صب بستور من الطاقة ما يصبه مائة رجل ، وأحدث
فيها من الحوادث ما يحده هذا العدد من الرجال متظاهرين
وقام بستور وصاحبه يؤكدون أمر هذا اللقاح ، فذكروا
مكروبا للكوليرا يقدم في حسائه وزجاجته ، فلما ضمنت شرته
حفظوه في عشرات من الدجاج الصحيح ، فمرضت سريعا ،
واشتفت سريعا ؛ وبعد أيام قلائل حقنوها بذريمة خبيثة من
المكروب نفسه تكفي لقتل المدد الوفير من الدجاج الصحيح
الذي لم يحقن بعد ، وأخذ ثلاثتهم يقبون هذا الدجاج تياهين
معجبين باحتماله تلك الملايين من المكروبات وسموده التريب لها
هكذا أغرى بستور بذكائه مكروبا بمكروب . بدأ بتأنيسه ، فلما
تم له ذلك حشده وسلطه بأسلوبه التريب على مكروب من جنسه
ولو أنه لم يكن عندئذ فعل ذلك في غير مكروب كرابرا الدجاج ،
فقد اندفع على عهدته في غطرسته وتعجرفه على الأطباء ، وفي
حملته على آرائهم الشتيقة ، وهزى برطانتهم اللاتينية ، وسخر
بوصفات جرت بها أفلامهم على الورق سريمة كالبرق الخاطف ،
وانعدت الجمعية الطبية فقام بخبر الأطباء في أدب جم أن لقاح
الدجاج الذي كشفه يفوق كثيرا لقاح الجدري الخالد الذي كشفه
بينار Jenner قال لهم : « فأما الآن قد دلت على ما لم يكن بينار
ليستطيع التليل عليه ، وذلك أن المكروب الذي يقتل الحيوان
هو نفسه الذي يقيه من الموت »